القصة القرآنية ومناسبتها لغايات التنزيل

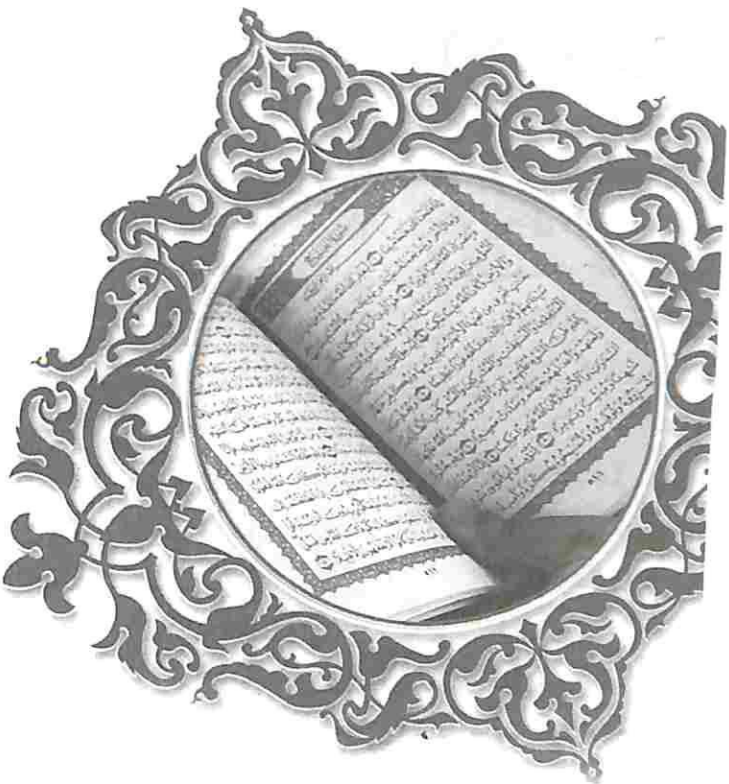

إن فني الأدب الرئيسيين هما الشعر والقصة ، وعندما أرسل النبي ﷺ بالقرآن كان في أمة تفوقت في فن الشعر أكثر من تفوقها في فن القصة ، وإن حفل شعرهم بالقصة وكثر حديثهم عن أخبار العرب وأيامهم ، لكنها لم تكن تمثل الفن الذي تفخر القبيلة بوجود أحد رواده فيها مثل الشعر ، فمكانة الشعر كانت عظيمة في نفوس العرب ولكن هناك أموراً هامة استبعدت الشعر من حلبة الدين كوسيلة لتبليغه ، فرغم كثرة القصص في القرآن وقول الله تعالى " نحن نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصصِ بما أوْحينا إليْكَ هذا القُرْآنَ (٣ يوسف) وقوله " كذلكَ نقُصُّ عليْكَ منْ أنباءِ ما قدْ سبقَ" (٩٩ طه) ، نجد القرآن يتحدث عن النبي ﷺ ويقول : " وما علَّمناهُ الشِّعْرَ وما ينبغي لهُ " (٦٩ يس) ويتحدث عن نفسه ويقول "وما هُوَ بقوْلِ شاعرٍ " (٤١ الحاقة).

يوسف غريب - مصر

ونستطيع أن نفسر ذلك بما يلي :

أولا : إن الشعر يتنافى مع أمية الرسول ﷺ (١) فشروط قول الشعر أن يتدرب الشاعر منذ صغره على تعلم الشعر وحفظه حتى تستقيم له الأوزان والمعاني، وأيضاً حتى لا يظن العرب أي علاقة للشعر بالنظم القرآني .

أما القصة فهي تمثل أخبارا عن أمم سابقة لا يعرف عنها محمد ﷺ شيئاً ، فهو مجرد رسول بما تعنيه الكلمة من حمل أمانة وتبليغها ، والقرآن يوضح أن النبي ﷺ لم يكن شاهد عيان لأي من أحداث هذه الأمم ، فعن مريم عليها السلام يقول القرآن : " وما كُنتَ لديهِمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يكْفُلُ مريمَ " (٤٤ آل عمران) ، وفي قصة موسى عليه السلام يقول القرآن : " وما كُنتَ بجانبِ الغرْبيِّ إذْ قضيْنا إلىٰ مُوسى الأمْرَ وما كُنتَ من الشّاهدينَ " (٤٤ القصص) ، وهكذا فإن القصة تمثل إعجازا للنبي ﷺ في معرفة أخبار

الأمم السابقة . رغم أنه لم يقرأ كتب اليهود والنصارى ولم يدرسها . تلك القصص التي تشابه بشكل أو بآخر قصص القرآن " **هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي** " (٢٤ الأنبياء) .

ثانيا : إن قول الله عز وجل : " **وما علَّمْناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** " ينفي علاقة الشعر بالرسول ﷺ : فالشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال ، والنبوة وحي على منهج ثابت على صراط مستقيم يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله لا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة وتقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال .

والنبوة اتصال دائم بالله وتلق مباشر عن وحي الله ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله ، بينما الشعر في أعلى صوره أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشبوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته ، فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد وفورة لحم ودم !! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس ، هذه في أعلى صورها أشواق تصعد من الأرض وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء .. (٢) " **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ** " (٦٩ يس) .

ثالثا : وهي تمثل ملاحظة مهمة في دعوة هذا الدين وهو أنه دين خاتم . وتتمثل معطيات هذا الدين في قرآن نزل من السماء وذكر نزل على النبي ﷺ، ليبين هذا القرآن : فقد كان النبي ﷺ يعالج بسنته الموقف تلو الموقف مما يقابل المؤمنين أو يشكل عليهم ، وقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يُسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحي بقرآن يجيب عما سئل عنه ، لكن القرآن لم يكن ليقتصر على ذلك ، فقد كان كثيراً ما يتحدث عن الأمم السابقة ، وأنبيائها ، بل إنه يقول : " **إِنَّ هذا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بني إِسْرائيل أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فيه يَخْتَلِفُون** " (٧٦ النمل). وهذا يعني أن ذلك كان يزيد عن احتياجات المسلمين آنئذ .

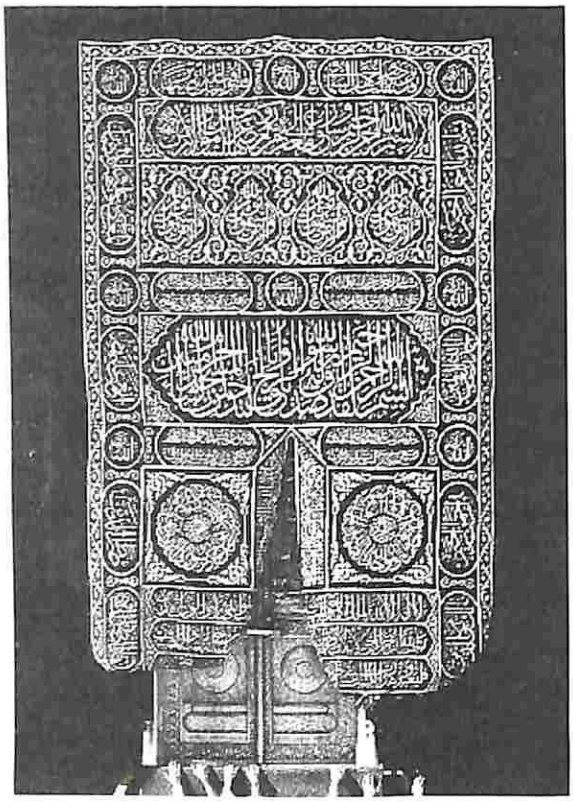

والسبب في ذلك بجانب أنه كان لتسلية النبي ، إظهار ما كان في سبيل الدعوة في الأمم السابقة ، وما لا قوه من عنت ومشقة ، وتثبيت له " **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** " (١٢٠ هود) ، إنه سبب لا يقل أهمية وإن كان يزيد في ذلك لأنه بصدد خدمة الدعوة حتى يوم القيامة ، فما هو ؟!

لقد كانت احتياجات المسلمين وأقضيتهم مهما عظمت محدودة ، فلو اقتصرت نصوص الوحي على هذه القضية لكانت هي الأخرى محدودة ، ولاحتاج نسل جيل الصحابة وأحفادهم إلى نبي جديد يعالج مشكلاتهم الجديدة ، لكن الله عز وجل يبين أن سنة الله في الأمم السابقة لا تتبدل ولا تتغير " **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** " (٢٣ الفتح) .

ومن هنا كانت أخبار الأمم السابقة تذكر وقائع قد تحدث في أي عصر ومصر لأنها تمثل سنة الله ، وهذه الوقائع فيها الإجابات لما يمكن أن يلاقي المؤمنين وأصحاب الدعوة في أي وقت كان ، حتى بعد موت النبي ﷺ ، فيتم إعجاز هذا الدين

لاحتوائه أزمات الأمة " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (١٦٥ النساء) .

ولنضرب الآن مثلاً : لم يعرف الشذوذ الجنسي في عهد الرسول ﷺ والسنة لم يثبت بها أي نص للنبي ﷺ لهذه المأساة الأخلاقية . ذلك أن المجتمع العربي كان آنذاك بعيداً عن هذه الرذيلة ، ولئن كان قريباً من غيرها كالخمر والميسر والزنا ... إلخ .

ثم نسير بالزمن قليلاً لنصل إلى العصر العباسي لنجد (أدب الزندقة والمجون) قد أخذ أطواراً من الغزل بالمذكر لم تكن معروفة في الجاهلية أو في الإسلام بشبه الجزيرة العربية ، ونسير بالزمن مرة أخرى حتى نصل إلى القرن العشرين ، لنجد أن أخطر الأمراض الوبائية التي لم يجد الطب لها علاجاً حتى الآن تعود أسبابها إلى هذه العلاقات الشاذة .

ولابد إذن أن يكون السؤال الآن في أي مجتمع مسلم : هل قصَّر الوحي في أداء مهمته لأنه كان يجهل المستقبل - معاذ الله - ؟ إن القرآن قد أجاب وأثبت هذه الجريمة في حق الإنسانية قبل أن يسأل عنها بأكثر من ألف وأربعمائة سنة حين ذكر لنا قصة لوط عليه السلام مع قومه ، وما فعله معهم وعاقبتهم " ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴿٥٤﴾ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴿٥٥﴾ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴿٥٦﴾ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴿٥٧﴾ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴿٥٨﴾ " (النمل) .

وحينئذ تكون الآية والمعجزة لهذا الدين الذي جاء تفصيلاً لكل شيء " ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل " (٨٩ الإسراء) ، وتكون فيه الحجة والآية " إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين " (٦٧ الشعراء) .

رابعاً : إن العبرة لا يستطيع أن يحملها مجرد لفظ رشيق ووزن موسيقي عذب مع انفعال شخصي كما في الشعر . لكن للقصة أن تحمل ذلك لما تحمله من أحداث تمثل واقعاً كان موجوداً في حياة البشر ، وكان لهذا الواقع بأحداثه وصراعه ونهايته عبرة يستطيع ذوو العقول أن يكتشفوها ، وهذا ما يصرح به القرآن " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب " (١١١ يوسف) .

القصة القرآنية بين الواقع والمثال :

عندما وصف القرآن الوحي أطلق عليه لفظ الذكر مخالفة لمعنى النسيان " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين " (٥٥ الذاريات) ، وكذلك الذكر يعني علو الشأن (٣) " وإنه لذكر لك ولقومك " (٤٤ الزخرف) ، " ورفعنا لك ذكرك " (٤ الشرح) ، ليس هذا فقط بل إن الله عز وجل قد يسر هذا القرآن للذكر " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (١٧ القمر) ، وتكفل أيضاً بالحفظ " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٩ الحجر) .

ولذا فإن القصة القرآنية بوصفها ذكراً منزلاً تحتوي على مميزات كبيرة قد لا تتوافر في غيرها وهي :

١ - النفع : " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين " (٥٥ الذاريات) .

٢ - التيسير : " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (١٧ القمر) .

٣ - عدم النسيان: " أو يذكر فتنفعه الذكرى " (٤ عبس) .

٤ - الحفظ من التحريف : " وإنا له لحافظون " (٩ الحجر) .

والقصة في لغة القرآن تعني تتبع الأثر " وقالت لأخته قصيه " (١١ القصص) ، " فارتدا على آثارهما قصصا " (٦٤ الكهف) ، " وكلا نقص عليك من أنباء الرسل " (١٢٠ هود) .

والقصة القرآنية بوصفها حكاية مضروبة للمثل أو قصة من واقع الحياة في أمم سابقة تتبعت فيها القصة آثارها ، تمثل القصص الحق " إن هذا لهو القصص الحق " (٦٢ آل عمران) ، وذلك أنه يناسب غايات التنزيل في وصف الواقع . وليست القصة الواقعية في الإسلام والتي يعلمها لنا القرآن تلك

القصة التي ترسم الواقع البشري على أنه واقع خال من الشوائب ومن أخطاء النفس البشرية . فلحظات الضعف البشري يصفها القرآن ولا يغفلها ، لأن الضعف من طبيعة البشر " وخُلق الإنسانُ ضعيفًا " (٢٨ النساء) .

وهو حين يصف هذا الضعف البشري لا يجعل منه بطولة تستحق الإعجاب ، فهو لا يقف عندها طويلاً ، لكنه يسرع ليسلط الأنوار على لحظة الإفاقة والتغلب على هذا الضعف البشري [٤] " فالقصة في القرآن لا ترسم لنا واقعا باردا أو جانبا سيئا ، بل ترسم لنا ما ينبغي أن يكون عليه الواقع .

وهناك أمثلة كثيرة ونماذج من الضعف البشري وصراعاته في القرآن وقصصه ، ففي قصة يوسف- عليه السلام - نرى الضعف يتمثل فيما كان بين يوسف وامرأة العزيز "ولقد همّتْ به وهمَّ بها لولا أن رَّأىٰ بُرهان ربّه " (٢٤ يوسف) ، ولا يقف المشهد كثيرا على طريقة (الهم) لأنها ليست هدفا بل هي وسيلة لإبراز الخطأ وتقويمه "وإلاَّ تصرفْ عنِّي كيدهنَّ أصْبُ إليهنَّ وأكُن مّن الجاهلين ، فاستجاب لهُ ربُّهُ فصرف عنهُ كيدهُنَّ إنّهُ هو السَّميعُ العليمُ " (٣٣ -٣٤ يوسف) .

وقصة يوسف بطولها تعد أتم قصص القرآن وأكثرها اتصالاً حيث وردت كاملة السياق والأحداث من مبدئها إلى منتهاها ، والله يقول عنها في القرآن : " نحنُ نقُصُّ عليْك أحسن القصص " (٣ يوسف)، وعبارة أحسن القصص هنا لها معنيان باعتبار القرآن حمال أوجه :

(الأول) إن الحسن في موضوع القصة ذاتها ، وفي أهدافها وغاياتها .

(الثاني) إن الحسن في قالب القصة ، وطريقة عرضها ، أي فنيتها . [٥]

وإذا نحن عدنا لقول يوسف " أصب إليهن وأكن من الجاهلين " فإنها توضح لنا مغزى هاما، وهو أن الفاحشة والوقوع فيها يجعل نبيا كريما مثل يوسف عليه السلام في صف الجاهلين، وهذا هو سبيل الله " من يعمل سُوءًا يُجز به ولا يجدْ لهُ من دُون الله وليًا ولا نصيرًا " (١٢٣ النساء) ، فليس لأحد في شريعة الله مكانة تبرر له الفاحشة أياً كان .

إن القصة القرآنية كثيراً ما تذكر لحظات الضعف البشري وتذكر التصرفات المختلفة لأصحابها ، فأصحاب الجنة دفعهم الضعف البشري للشح ، فكان العقاب " إنَّا بلوْناهُمْ كما بلوْنا أصْحاب الْجنَّة إذْ أقْسمُوا ليصْرمُنَّها مُصْبحين ﴿١٧﴾ ولا يسْتثْنُون ﴿١٨﴾ فطاف عليْها طائفٌ مّن رَّبّك وهُمْ نائمُون ﴿١٩﴾ فأصْبحتْ كالصَّريم ﴿٢٠﴾ فتنادوْا مُصْبحين ﴿٢١﴾ أن اغْدُوا علىٰ حرْثكُمْ إن كُنتُمْ صارمين ﴿٢٢﴾ فانطلقُوا وهُمْ يتخافتُون ﴿٢٣﴾ أن لاَّ يدْخُلنَّها الْيوْم عليْكُم مّسْكينٌ ﴿٢٤﴾ وغدوْا علىٰ حرْدٍ قادرين ﴿٢٥﴾ فلمَّا رأوْها قالُوا إنَّا لضالُّون ﴿٢٦﴾ بلْ نحْنُ محْرُومُون ﴿٢٧﴾ قال أوْسطُهُمْ ألمْ أقُل لَّكُمْ لوْلا تُسبّحُون ﴿٢٨﴾ قالُوا سُبْحان ربّنا إنَّا كُنَّا ظالمين ﴿٢٩﴾ فأقْبل بعْضُهُمْ علىٰ بعْضٍ يتلاومُون ﴿٣٠﴾ قالُوا يا ويْلنا إنَّا كُنَّا طاغين ﴿٣١﴾ عسىٰ ربُّنا أن يُبْدلنا خيْرًا مّنْها إنَّا إلىٰ ربّنا راغبُون ﴿٣٢﴾ كذلك الْعذابُ ولعذابُ الآخرة أكْبرُ لوْ كانُوا يعْلمُون ﴿٣٣﴾ " (القلم) .

وصاحب الجنة اغتر بماله وولده فكان الجزاء من جنس العمل .

" ودخل جنَّتهُ وهُو ظالمٌ لّنفْسه قال ما أظُنُّ أن تبيد هذه أبدًا ﴿٣٥﴾ وما أظُنُّ السَّاعة قائمةً ولئن رُّددتُّ إلىٰ ربّي لأجدنَّ خيْرًا مّنْها مُنقلبًا ﴿٣٦﴾ قال لهُ صاحبُهُ وهُو يُحاورُهُ أكفرْت بالَّذي خلقك من تُرابٍ ثُمَّ من نُّطْفةٍ ثُمَّ سوَّاك رجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكنَّا هُو اللَّهُ ربّي ولا أُشْركُ بربّي أحدًا ﴿٣٨﴾ ولوْلا إذْ دخلْت جنَّتك قُلْت ما شاء اللَّهُ لا قُوَّة إلاَّ باللَّه إن ترن أنا أقلَّ منك مالاً وولدًا ﴿٣٩﴾ فعسىٰ ربّي أن يُؤْتين خيْرًا مّن جنَّتك ويُرْسل عليْها حُسْبانًا مّن السَّماء فتُصْبح صعيدًا زلقًا ﴿٤٠﴾ أوْ يُصْبح ماؤُها غوْرًا فلن تسْتطيع لهُ طلبًا ﴿٤١﴾ وأُحيط بثمره فأصْبح يُقلّبُ كفَّيْه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاويةٌ علىٰ عُرُوشها ويقُولُ يا ليْتني لمْ أُشْركْ بربّي أحدًا ﴿٤٢﴾ ولمْ تكُن لَّهُ فئةٌ ينصُرُونهُ من دُون اللَّه وما كان مُنتصرًا ﴿٤٣﴾ " (الكهف) .

والمثالان السابقان يمثلان الإنسان الضعيف الذي يسقط أمام غواية نفسه فيلقى الجزاء المناسب لخطيئته ، أما الإنسان التائب الأواب فإن القصة

القرآنية تصنع الجزاء المناسب لتوبته ، فيونس - عليه السلام - يلقى جزاء مناسبا حتى وهو في بطن الحوت وذلك لاعترافه بخطئه .

" **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾** " (الأنبياء) .

وهذا هو الفرق بين القصة القرآنية ووصفها للضعف البشري على أنه لحظة عابرة لا تجعل من صاحبها بطلا على الإطلاق مثل ما نراه في قصص الأدباء البشر الذين يمثل أدبهم نفسه ضعفا بشريا ، فألیکسندر دیماس (الابن) یجعل من غادة الكاميليا بطلة تثير إعجاب وشفقة القارئ لا لشيء إلا لأنها تقرر العودة إلى الفحشاء ، خوفا على معشوقها أن تسوء سمعته إذا ارتبط بعاهرة ، لقد تمثلت البطولة في هذه القصة في العودة إلى تلك الفاحشة !! (٦)

أما عبد الحميد جودة السحار بوصفه أديبا تربى على القرآن وقصصه، فقد جعل بطله " كمال " في (همزات الشياطين) ذلك الشاب الملتزم يقع فريسة للرغبة الآثمة ، والمؤلف يعود ويصور لنا هذا الصراع الشديد بين الخير والشر في نفس البطل ، والذي ينتهي بتوبة البطل في لحظة الإفاقة قبل الوقوع في هذه الجريمة ، وإذا به يسمع صوتا ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحا قويا وانساب فيهما عذبا نديا .

" كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " فتمتم والدموع تخضب وجهه " اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك " . (٧)

ومما سبق نستطيع أن نقرر أن القصة في القرآن تمثل المثالية المنشودة في قصة الحياة الواقعية .

الهوامش

١ - الجامع لأحكام القرآن الكريم ، القرطبي ، ٨ / ٥٤٩٥ . ط دار الشعب - دار الريان .

٢ - في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٩٧٥ .

٣ - أساس البلاغة ، الزمخشري ، مادة " ذ ك ر " ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤ - منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ص ١٥٩ .

٥ - الكشاف ، الزمخشري ، ط عالم المعرفة - بيروت .

٦ - غادة الكاميليا ، اليكسندر ديماس " الابن " روايات الهلال .

وقد قام مصطفى لطفي المنفلوطي بإعادة صياغتها تحت اسم " الضحية " في كتاب " العبرات " .

٧ - همزات الشياطين ، عبد الحميد جودة السحار ، مكتبة مصر .